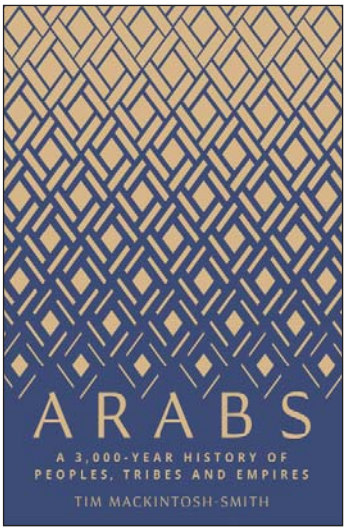


**Tim Mackintosh-Smith.-** ***Arabs, a 3,000-Year History of Peoples, Tribes and Empires*** **(New Haven and London: Yale University Press, 2019), 656p.**

**تيم ماكنتوش سميث.- العرب، 3000 سنة من تاريخ الشعوب والقبائل والإمبراطوريات (نيوهيڤين ولندن: منشورات جامعة يال، 2019)، 656ص.**

لا يزال تاريخ العرب يثير المزيد من اهتمامات الباحثين والمؤرخين من جنسيات مختلفة بغية اسكتشافه وفهمه وتحليل صورة الإنسان العربي ودين الإسلام على السواء، وتفكيك آليات الدولة الإسلامية وتاريخها، وعلاقات السلطة والتبعية، وطبيعة العلاقة بين هذه العناصر في مختلف منحنياتها. وفي كثير من الأحيان، اتسمت كتاباتهم إما بالسطحية أو التعميم أو النظرة الاستشراقية المتعالية. كما ظهرت كتابات حديثة تناولت تاريخ الإسلام بمنظور مغاير ومن زوايا مختلفة، وهو ما ينطبق على الكتاب موضوع هذا العرض، والذي أهداه صاحبه لذكرى اليمن الموحد التي استمرت من سنة 1990 إلى سنة 2014.

يمتد الكتاب على مساحة زمنية تتجاوز 3000 سنة من التاريخ العربي، إذ يسلط صاحبه تيم ماكينتوش الضوء على شعوب العرب وقبائلهم وإمبراطورياتهم التي تمكنت من بسط سيطرتها اللغوية وثقافتها على مجالات متعددة. ويلقي الضوء على النقاش الدائر حول مسألة الوحدة العربية وأسباب فشل العرب في تحقيق الوحدة على الرغم من ماضيهم "المُشرق." وهذا فضلا عن عجزهم أمام محاولات تجاوز صراعاتهم ونزاعاتهم السياسوية، رغم أهمية وجود عوامل التشابه أكثر من عوامل التفرقة.

جاء العمل في طبعة، تتجاوز عتبة 650 صفحة، وتم تقسيمه إلى خمسة فصول مسبوقة بتمهيد، ومذيل بخاتمة. وتجدر الإشارة إلى استحالة فهم أطروحة الكتاب بالاقتصار على فصل أو جزء منه، إذ يجسد بناءاً متكامل الأركان لا يستقيم الجزء فيه إلا بالكل ولا الكل إلا بالجزء. ويحاول هذا التقديم الجمع بين تفكيك بنية الكتاب ومضامينه ومناقشة القضايا المنهجية والمعرفية المطروحة.

يرصد تيم ماكنتوش تطور تاريخ العرب من خلال اهتمامه بتطور اللغة العربية، لكنه يميز بين العرب والمسلمين، كما يقر بأن انتشار اللغة العربية يرجع إلى الإسلام وبناء امبراطورية مترامية الأطراف لكنها لم تعمر طويلا حين طفحت على السطح أشكال احتجاجية اتخذت طابعا اجتماعيا وثقافيا وتحولت إلى مطالب سياسية. وإننا أمام كتاب غني بالتفاصيل والمعطيات، إذ يطرح كثيرا من القضايا المثيرة للتفكير، ومنها مثلا أن كلمة العرب التي اعتبرها كلمة هلامية يصعب تنميطها، كما أن العرب عرق مركب، ثم مسألة اللغة والصراع الطائفي وفشل الوحدة، وهي مفاهيم تحتاج إلى كثير من التوضيح مع ضرورة وضعها في السياقات التي أنتجتها.

وينطلق المؤلف من الماضي الشائك ليصف واقعا وحاضرا أكثر تعقيدا بحديثه عن الانفصال والوحدة، إذ وضع الأحداث الراهنة كما يعرفها العالم الإسلامي (ثورات الربيع العربي وانقسام اليمن) ضمن سياقات تاريخية ممتدة في الزمن، في محاولة منه للإجابة عن إشكالية الوحدة العربية وعدم تحقيقها طوال هذه السنين. والواقع أن هذه الإشكالية ظلت تراود وجدان المؤلف على امتداد صفحات هذا العمل وتُساءل في الوقت نفسه العقل العربي الجمعي وبينة التفكير العربية.

وضع الكاتب الأحداث الراهنة ضمن سياق تاريخي طويل ممتد، نظرا لاهتمامات الباحث المتعددة ومعرفته بالمجتمع اليمني الذي أقام فيه ردحا من الزمن، فضلا عن اهتماماته البحثية التي تركزت حول ابن بطوطة الذي ترجم رحلته (سنة 2002)، وأصدر حوله ثلاث دراسات.. ومن جانب آخر، نالت اليمن نصيبها من دراسات تيم ماكنتوش.

وربط الكاتب تطور العرب من زاوية اللغة العربية على مستوى الشخصيات والأفكار، فأبان عن دراية بجغرافية الفكر العربي والروح والأرض العربيتين، بتقديمه جملة من الأدلة اعتمادا على كتاب ومؤرخين عرب مثل المسعودي وابن خلدون وألبير حوراني، وأدباء أمثال الجاحظ وابن المقفع وطه حسين وعبد الفتاح كليطو، فضلا عن استحضاره أشعار بشار بن برد وأبي نواس ونزار قباني ومواقفهم السياسية والثقافية. وتذهب معظم الروايات إلى ارتباط تواريخ العرب بظهور الإسلام الذي حدد هوية الأشخاص ووحد تاريخهم، لكنها وحدة لم تكن قارة وثابتة، إذ اجتمعت قبائل الجزيرة العربية وبايعت الرسول سنة 630م، فوحد قبائل يثرب والجزيرة العربية اعتمادا على مفتاحي العقيدة وتوظيف اللغة التي ليست بلغة تداولية يومية، ولكنها لغة متعالية

جسدتها لغة الوحي، فأصبحت لغة القرآن لغة مرجعية. غير أن معظم القبائل سرعان ما عادت إلى استقلالها التقليدي ومشاحناتها القديمة بعد وفاة الرسول.

ومع الإسلام، بدأ السرد الموحد وظهرت معه طرق جديدة في استخدام اللغة والسيطرة لتشكيل الهوية. وقبل ظهور الإسلام، هيمنت سيادة الأدب والشعر والثقافة والتاريخ والرواية الشفوية إلى حد كبير. أما بعد الإسلام، فقد ظهر القرآن وعزز استخدام اللغة العربية قراءة وكتابة، فأصبحت لغة معيارية. وشبه المؤلف انتشار اللغة العربية باللغة اللاتينية الجديدة، كما ساعد على ذلك ظهور الورق. لكن هذا الماضي المشرق لم يستمر طويلا لعدة أسباب يستفيض الكاتب في شرحها ويربطها بوقوع تحولات لم تصل إلى مستوى العمق القبلي. وفي رأيه، تحاول اللغة العربية إثبات ذاتها وسط الثورة المعلوماتية التي يعيشها عالم اليوم. والملاحظ هنا، اعتماد المؤلف على آراء كتاب ومفكرين عرب مثل ابن خلدون، لدرجة أنه يضع نوعا من المقارنة بينه وهو الجالس في صنعاء، حيث تتصارع القبائل والسلالات وتتقاتل لإشعال مزيد من الحروب، وبين ظروف تأليف ابن خلدون لكتابه في خلوته بأرض الجزائر، في ظرفية سياسية صعبة اتسمت بتراجعها الفكري الشديد. وفي هذا الصدد، يضع المؤلف نوعا من المماثلة بين واقع ابن خلدون والواقع الحالي كما يعيشه العرب.

"إن رؤية الأرض التي أعيش فيها وأحبها تنهار أشبه بمشاهدة صديق قديم وعزيز يفقد عقله وينتحر ببطء،" بهذه الجملة علق الكاتب على وضعية صنعاء المكلومة والمدمرة بعد أن كانت إحدى أكبر مدن سبأ قبل الإسلام. ومن جانب آخر، يعتقد الكاتب إمكانية تطبيق فكرة ابن خلدون حول العصبية القبلية اليوم، باعتبارها السمة الأساس والطاقة الكامنة لدى جماعة معينة والقادرة على تحفيز أفرادها، ولو لمدة قصيرة المدى يمكن أن تظهر في غارة مفاجئة أو انقلاب ناتج عن احتكار الموارد أو عدم تحقيق الجماعة للاكتفاء الذاتي أو بسبب تقسيم الثروة، وهكذا قد تتشظى الوحدة وتتشكل عصبية جديدة، فتتكرر هذه العملية نفسها. فهل يعتبر هذا دليلا على ضعف في تصور معاني الديموقراطية؟ لقد أورد ما كتبه طه حسين حين قال: "نحن نعيش في عصر (...) حيث الحرية والاستقلال ليست غاية تسعى إليها الشعوب والأمم، ولكنها وسيلة لتحقيق غايات أعلى وأكثر ديمومة وأكثر شمولاً في فوائدها."

لم يغفل الباحث اهتمامه بالمجال الجغرافي لشبه الجزيرة العربية وخصائصه الطبيعية، ومن أبرزها نقص المياه وضُعف التساقطات. ولهذه الأسباب، استفاد المجال من خيرات الهلال الخصيب ومن وجود مضايق استراتيجية مثل باب المندب ومضيق هرمز. في حين تجلت الخصائص البشرية في تعدد القبائل التي اندمجت سطحيا وليس بشكل عميق. وجعلت الخصائص سابقة الذكر المجال مفتوحا على تيارات الهجرة سواء كنقطة انطلاق أو توافد أو استقرار، وهي سمات تعززت بعد ظهور الإسلام، كما برزت امبراطوريات ودول حكمت باسم العرب. وقد شبه الكاتب تفاعل اللغة العربية مع لغات المناطق الأخرى بحكم تيارات الهجرة المتعددة بما أسماه "التكتونية اللغوية."

ويشير المؤلف أيضا، إلى إسهام الفتوحات الاسلامية في إخراج العرب بعيدا من شبه الجزيرة العربية، إذ بدا ذلك وكأنه معجزة، لكنه في غضون 300 سنة، صار الحكم العربي الموحد مجرد ذكرى، وعاش العرب منقسمين على مدى آلاف السنين، فتعاقب على حكمهم كل من الأتراك والفرس والبربر والأوروبيين. ويعني بذلك، تفتت الإمبراطورية العربية كما مثلها الحكم الأموي والعباسي، وهي فترة وسمها الكاتب بعصر السيطرة، وتمتد إلى غاية 900 ميلادية، لتبدأ بعدها مرحلة التراجع التي كانت من أهم معالمها: عدم تحقيق اندماج كلي للعناصر غير العربية المنضوية في خدمة الدولة العباسية، ودام هذا الخلاف طويلا، فقوبل أحيانا بالحوار، وباستعمال لغة السلاح أحيانا أخرى، مثل ثورة الزنج على الخليفة العباسي (869-883)، وتسمى أيضا ثورة العبيد ضد الخلافة، وقد تركزت في البصرة ومحيطها، وانطلقت شرارتها على يد العبيد ذوي الأصول الشرق الإفريقية ممن استخدموا في البصرة وغيرها من المناطق. لكنها سرعان ما اتسعت لتشمل المستضعفين والمستعبدين على حد سواء. وقد اعتبرت ثورة شعبية قادها شخص غير معروف الأصل اسمه علي بن محمد، وانتهت بعد أن تركت نذوبها على جبين الخلافة العباسية. ثم تواصلت الثورات بعد ذلك، ومنها ثورة الأنباط بزعامة حمدان قرماط، المعارض للسيادة العربية والاحتكار والتهميش. وقد تسبب القرامطة في خراب العراق والشام. وفي الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية، شكلوا حركة أكثر راديكالية، إذ أغاروا على مكة عام 930م وسرقوا منها الحجر الأسود، رغم حمولته الدينية، مما أصاب رمزية مكة ومكانتها ومعها قريش في الصميم. وينبغي الاشارة هنا، إلى أنه قد تم تشبيه الحوثيين بالقرامطة بعد إطلاقهم صاروخا في اتجاه مكة نهاية عام 2016.

وتجلت المعارضة على المستوى الثقافي في أشعار بشار بن برد وحركة إخوان الصفا كتعبير عن رفض المركزية العربية والقرشية، فسعت الحركة "الشعوبية" إلى تفضيل العجم على العرب واعتبار تاريخهم أرقى من تاريخ العرب، مما أكسب هذه الحركة بُعدا ثقافيا واضحا. وهو ما تجلى على مستوى اللغة وتفاعلها مع الروافد المتعددة من فارسية وعبرية ولاتينية وتركية، فارتبط بحضور المؤثرات سابقة الذكر في بنية الفكر واللغة العربية التي استمرت في التداول الديني والرسمي. وظلت بذلك اللغة موضوع نزاع، إذ وظفت سياسيا، مما جعل منها سيفا ذو حدين، وكدلالة على السيطرة أو على التبعية. ونجد بعضا من تجليات ما حدث بشبه الجزيرة العربية في أماكن أخرى مثل مصر والغرب الإسلامي، إذ احتفظت بعض الأسر بأسمائها العائلية الأصلية غير العربية. وظلت الشعوبية حاضرة في منعرجات التاريخ العربي الإسلامي، إذ استمرت المصادمات الحضرية. وقد أحيت دينامية "الصحوة" في القرن التاسع عشر والقرن العشرين النقاش بين القوميين والعثمانيين، فاتهم معارضو القومية العربية وحتى الماركسيين بالشعوبية. كما تم وصف خصوم صدام حسين في الحرب العراقية الإيرانية بأنهم "شعوبيون." وعلى النحو نفسه، اتُهم الحوثيون الإيرانيون المتأثرون باتباع أجندة الشعوبية. واعتبر الكاتب أن معركة الحوثيين الراهنة، هي في جزء منها، معركة من أجل الهوية. لقد بنى الحوثيون لأنفسهم هوية مميزة من شظايا الماضي غير الطائفي والثقافي والسياسي. أما السعوديون وغيرهم، فيعتبرون أنفسهم جزءًا من الرواية العربية للتاريخ القبلي.

وهذا ما يوضح انتقال الكاتب عبر منعطفات تأليفه إلى الزمن الراهن للحديث عن التطور الذي عاشته شبه الجزيرة العربية بعد عصر البترول، وبروز معالم الحداثة في دبي والرياض، وظهور قيادات سياسية مغايرة في أفكارها، كما برزت أنماط جديدة للعيش والاستهلاك، لكنها تظل حبيسة العقلية والعادات والتقاليد الموروثة. ويطرح سؤال التغيُّر والتأقلم مع الخصائص الجغرافية لشبه الجزيرة العربية، وإبراز علاقات الصراع والتصادم والتدافع التي ميزت تاريخ شبه الجزيرة، وإسقاطه على تاريخ العرب، لكن إلى أي حد يمكن الاطمئنان إلى هذا الاسقاط؟ أليس في ذلك تعسف على تواريخ عربية محلية؟

ويتعامل صاحب الكتاب كمؤرخ اعتمادا على نظرته الخاصة للأشياء وللقضايا المستمدة من تكوينه ومن خلفيته الايديولوجية ونظرته للوقائع ولمجريات الأحداث، إذ حاول تفسيرها انطلاقا من جدلية الصراع والتنازع الذي ميز التواريخ العربية. وبمعنى

آخر، فإنه يحيل على تاريخ مظلم وعنيف، ويتجلى ذلك في حديثه عن صراعات أبي سفيان، التاجر المتمرس، وما خاضه من حروب على السلطة. ثم يذهب إلى أن هذا الصراع ما يزال متواصلا، بمعنى من المعاني، إلى اليوم، حيث سيادة النزوات والطموحات إلى السلطة، ومن صوره الصراع السني الشيعي، وكذا الصراع الخفي والواضح بين نمطي العيش المميز للحياة العربية ضمن النمط القبلي السائد والمتميز بوجود الرحل والمستقرين. ولهذا جاء وصفه كثيفا ومكثفا لتاريخ العرب، إذ تجاوز السرد، وأدمج معطيات ومعلومات عن مراحل الصعود والتراجع والخيبات ونتوءات الأمل مع الحركة الناصرية والبعثية والثقافات المعاكسة، وذلك فضلا عن وصفه امتداداتها الراهنة، كما حاول جاهدا تطويع مفاهيم الوحدة والخلاف والانفصال.

وفي الواقع، فإن الأحداث الأخيرة كما عرفتها الدول العربية قد جعلت الأمر يبدو أكثر قتامة؛ وبدا الحال وكأن العرب يبحثون عن منقد من هذه الورطة. وتظهر قيمة الماضي بسرد عدد من المواقع والشخصيات التي أثرت بوضوح في مجرى الأحداث. أما الحاضر فإنه أليم ومكلوم، ولهذا ظل الإنسان العربي ينتظر من يخلصه من واقعه المزري، مما يوضح عجزه عن الفعل واتخاذ القرار، فهل هذه صفة لصيقة بالإنسان العربي الذي يعيش أسيرا للتاريخ أو بمعنى أصح أسيرا للماضي؟ وغالبا ما يقع، في نظر الكاتب، استحضار الماضي كهروب نفسي وجداني وعلاجي من واقع مأزوم يعيش الشتات والتفرقة بحكم الصراعات الطائفية والمذهبية والصراع على الحكم ومناطق النفوذ –حالة الخليج العربي– وتوظيف سلطة الإعلام كقنوات **الجزيرة**، التي اعتبرتها بعض الأنظمة العربية معارضة للربيع العربي، كما ترى أن قطر قد تجاوزت الخط الأحمر بتواصلها مع العدو، إيران. وفي هذا الصدد، قال الرئيس المصري السيسي إنه "سيقطع لسان" **الجزيرة** – وهو تهديد مماثل استخدمه طغاة ما قبل الإسلام ضد الشعراء المعارضين لسلطة القبيلة.

ويرى المؤلف أن ساعة الزمن تظهر وكأنها تعود إلى الوراء في كثير من بلدان العالم العربي؛ ففي تونس وإن بدا أن الثورة ربما حققت شيئا إيجابيا، فإن مسيرتها متعثرة أمام عجز الاقتصاد عن التعافي والفشل في القضاء على التطرف. وأن سوريا تشهد تمسك بشار الأسد بالسلطة بدعم من روسيا وإيران، بينما تعيش اليمن على وقع حرب أهلية، بعد أن شهدت مقتل علي عبد الله صالح، يوم 4 دجنبر 2017، رميا بالرصاص على يد جماعة أنصار الله (الحوثيين)، مما خلف سيلا من ردود الفعل، وأثار تداعيات شتى

على أمن المنطقة واستقرارها، إذ دخلت في نفق مظلم أمام تعدد الفرقاء والمشاركين في استفحال هذه الأزمة. لقد أسهم عبد الله صالح بوضوح في بناء تاريخ اليمن المعاصر بعد توحيد شطري البلاد إثر توقيع اتفاقية الوحدة بينهما في عدن 30 نونبر 1989 ليتم إعلان الوحدة رسميا في 22 مايو 1990، لكنه أخفق تماما في الحفاظ على وحدة أصبحت سرابا.

وخلص الكاتب إلى أن الكلمات والأفعال قد أفضت في كل مكان تقريبًا، إلى تفجير المجتمعات وليس توحيدها. وأنه بات من المؤلم مشاهدة كل هذا يحدث في عالم عربي متأزم، ليتساءل عما إذا حصل هذا نتيجة قصور مزمن في الذات العربية؟ ومن أهم الخلاصات الأخرى، أن الهوية المشتركة في أساسها اللغوي أدت بالعرب إلى مطاردة سراب الوحدة التي لم تصمد كثيرا. وأن العرب لا يريدون إصلاح أوضاعهم بقدر ما يفضلون البقاء سجناء الماضي. وبناء عليه، من المحتمل أن يزداد الوضع سوءا مستقبلا وفقًا لمعايير الديمقراطيات الليبرالية. ولكن هل يتعلق الأمر بشكل من أشكال الاستعمار الفكري حتى في تطبيق تلك المعايير الليبرالية، ربما كان صموئيل هنتنغتون محقًا في حديثة عن صراع الحضارات. والأمل في أن يحقق العرب ذلك بأنفسهم، حتى يستفيدوا من قواعد التاريخ المتغيرة، كما وصف مكنتوش تاريخ العرب بأنه تاريخ إثارة، وهو ما تقع الحاجة معه إلى النظر صوب الصور التاريخية في حالتها الشمولية للتوصل إلى معرفة قد تكون أكثر عدالة لهذا الواقع المضطرب.

**محمد مزيان**
جامعة ابن طفيل القنيطرة